دراسة فنية لشعر العلامة محمد اقبال

الدكتور سليم طارق خان*

Abstract:

Allama Muhammad Iqbal is a great poet. He is considered to be the poet of Millah Al-Islamia. Iqbal has absorbed many dimensions belonging to the different cultures, Philosophies and Ideologies, prevailing on the different societies of the world. He has also taken very important theoretical aspects of the ancient Arabic and Persian historical ages. It is considered that the Jahaliya Poetry of Arabic Language has a great influence in shaping the poetical aspect found in Urdu and Persian poetry of Iqbal. The most of studies have been done about the theological contents of his poetry. One aspect was always found missing in Iqbal's poetry that was about the poetical techniques of Arabic poetry on Iqbal. In respect of its techniques in the light of modern and ancient poetry the study made in the article is around the poetical techniques of Iqbal in his different poetical works. It is being presented for the consulting of the scholars who are interested to study the relationship between Iqbal and Arabic poetry.

We has discussed in this article, the poetical techniques and meters etc to prove that the Arabic poetry have a great influence on Iqbal. The theological, theoretical and technical side has aspired the said poet very much.

ولـد العلامة محمد اقبال في مدينة سيالكوت إحدى مدن من اقليم بنجاب عام ١٢٩٤ ه الـمـوفـق لـلـتـاسـع مـن نـوفـمبـر ١٨٧٧م فـي عصر الاحتلال البريطاني للهند تلقى دروسه الابتـدائية فـي شبـه الـقارة حتى نال درجة الماجستير ثم ذهب إلى أوربا حيث درس المحاماة في انجلترا والفلسفة في ألمانيا و نال شهادة الدكتوراه ثم عاد إلى وطنه مرتويا و مزودا بالعلم والمعرفة ليكون بمثابة الدفة الموجهة للمسلمين –

كـرس اقبـال حيـاتـه و قصارى جهده من أجل نهضة المسلمين و يقظتهم فحررهم من آثاره المؤلمه و أعطاهم الأمل و بين لهم الطريق يتجلى ذلک كله في اشعاره و فلسفته و أدبه و شـعـره يـمثـل جوهر البلاغة في المعاني والألفاظ كما أنه يأتي بالصور الجمالية والأساليب السهـلة ، والتـراكيـب الـمـفيدة التي لا غموض فيها و نحن بصدد أن نتحدث عن دراسة فنية لشعره :

* رئيس قسم اللغة العربية و عميد الكلية لدراسات الإسلامية ، الجامعة الاسلامية ، ببهاولفور

أولا: الأساليب :

كان إقبال شاعرا موهوبا و ملهما لا يقرض الشعر إلا عن تجربة صادقة تدعوه إلى نظمه الدوافع المحركة فى نفسه و كان أسلوبه متدفقا سلسا يمتاز بالسهولة والاستطراد والسخرية كما يمتاز أيضا بالتأليف والانسجام ، وإن التأليف والانسجام سمة من سمات الصدق والطبيعة فنفسه تتحرى الفخامة فى اللفظ والروعة فى صياغة الشعر ، و كل هذا فيما ينبغى أن نقرره عبر عنه ببساطة الدكتور أحمد الشايب قائلا (١) : " إن الإخلاص فى تصوير ما فى النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة تجعل الاسلوب مقبولا ويصح من ثم مرآة العقل والخلق والمزاج التخييل سواء أكانت تلك جميلة أم قبيحة ، مستقيمة أم مضطربة " والرباعيات (٢) التالية تعطى تفسيرا

لذلك :

أسير فى طريق ليس له منزل

البذور التى أنثرها ليس لها محصول

أنالن أخشى الاحزان

لكن لا تطعنى حزنا لا يليق بالقلب

أعط الاضطراب للعالم منى

بدل و غير الأرض والسماء

اقتلع من ترابنا آدم آخر

أقتل هذا الإنسان الذى هو عبدللربع والخسارة–

الى متى تبغى نظرتك ممزوجة بالعتاب؟

إلى متى تبقى أصنام هذا العصر ؟

وإلى متى يبقى أولاد إبراهيم

خدما للنمرود فى بيت الأوثان ؟ (٣)

نحن نعرف أن العبارة تختلف باختلاف العاطفة فإذا كانت عاطفة متوسطة أو قصيدة

تعبر عن الإعجاب بالوردة احتاجت إلى سهولة العبادة و جمال الصور والإيجاز الكافى و إذا كانت عميقة خالدة تتصل بأصول الحياة و طبائع الناس اقتضت تعبير ا جزلا شديدا و صورا محكمة قد تكون تمثيلا أو كنايات أو مطابقة أو نحوها –

فكثير من الشعراء نظموا الشعر فيما يتعلق بزوال الحسن أما شاعرنا محمد إقبال فقد كشف النقاب فى منظومته عن حقيقة الجمال و جوهره الأبدى المتجلي في الكائنات ، و ذلک بطريقة نادرة و فريدة من ناحية المحسنات اللفظية والمعنوية و تعد هذه القصيدة من أحسن منظوماته (۴) ، و فيها يقول :

سأل الجمال عن الله ذات يوم
لماذا لم تخلدنى في هذاالعالم ؟
فأجاب الله أن الدنيا كالمرسم
وأنها قصة طويلة في ليلة العدم
وأن هذه الدنيا رسمت من ألوان التغير
وأن الجميل ذلک الشي ء الذي حقيقته الزوال
والقمر كان قريبا وسمع هذاالحوار
وقد أشيع هذا الحوار في السماء وسمعته نجمة السحر
السحر الذي سمعه عن النجم فأخبره للندى
وكان هذا سرالفلک لكن عرفه كاتم أسرار الأرض
سالت دموع الأزهار من رسالة الندى
أصبح قلب البرعم الصغير دما من شدة الحزن

كان إقبال مرتفع الخيال صاحب فطرة سليمة لم تسمح له بأن يحتمل شيئا قبيحا فى منظوماته و نرى أنه قد تناول موضوعات الحسن العشق و غيرها ولم يكن مجال خياله الشعريضيقا كما لم ينحرف عن المقاصد السامية –

استخدم إقبال الصنعة اللفظفة و استخدم التكرار اللفظي الذي يخلق جوا لطيفا من

حيث الألفاظ والمعاني معا فمثلا في بداية منظومته (جامع قرطبة) استخدم كلمة " تسلسل الأيام والليالي " ثلاث مرات في كل بيت ، وكذلك كلمة " عشق " ست مرات في كل بيت بأسلوب رائع لم يسبق له مثيل حيث تبعث الموسيقى من خلال تلك الكلمات المتكررة ،فقد نص علماء العروض على أنه لا يجوز تكرار اللفظ الواحد إلابعد سبعة أبيات ، و نحن نرى أن هذا لزوم ما لا يلزم و أنه يجوز تكرير اللفظ الواحد حين يوجبه المعنى ففي القرآن المجيد " قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس " فكرر كلمة " الناس " لأنها تعين المعنى المراد ، و في سورة الرحمن كرر القرآن عبارة " فبأى آلآء ربكما تكذبان" لأنها تزيد في تاكيد المعنى المراد و شاعرنا أيضا يستخدم التكرار اللفظي في تأكيد المعنى المراد (٥) :

توالي الأيام والليالي يرسم الأحداث توالي الأيام والليالي حزر الحياة والموت

توالي الأيام والليالي خيط حرير له لونان ينسج به الكائن الأعلى ثياب عباده

توالي الأيام والليالي نبرات القيثارة الأبدية بها يوقع الكائن الأعلى ما يمكن من الأنغام

توالي الأيام والليالي حجر محل عالمي يختبرك ويختبرني

ونجد في شعر إقبال ألوانا من الإبهام أو التورية إذ إنه يستخدم كلمة لمعنى خاص رغم أنها تستخدم لمعنى آخر من حيث اللغة أو من حيث الاصطلاح و من ذلك قوله (٦)

إن البنات يتعلمن اللغة الإنجليزية

والأمة تظن أنها طريق الفلاح

وهن يعتقدن أن التقاليد الشرقية ضارة لهن

التقاليد والحضارة الغربية تسربت في عيونهن

لكن ما هو المشهد الأخير لهذا التمثيل الغربي

إن عيوني منتظرة لترى ما وراء الستار

وفي الأبيات السالفة الذكر كلمة ما وراء الستار لها معنيان :

الأول : ستار المسرح ، والثاني : العواقب الخطيرة لا نفتاح الشرق على الفكر

الغربى ، وفي أشعار إقبال صور تعتمد على التشبيهات الرائعة ، و صور أخرى فنية تعتمد على المجاز والاستعارة ، والمجاز كما ورد تحديده في المثل السائر " ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة و هو مآخوذ من جاز هذ الموضع إذا تخطاه إليه " –

وينقسم التشبيه إلى نوعين : المفرد والمركب –

والتشبيه المفرد يتوافر في كلام الشعراء عامة ، أما شاعرنا فإنه يتسخدم التشبيه المركب كما نجد في منظومته و هو يخاطب جبل الهمالايا (٧) :

إن الثلج على رأسک كقلنسوة الفضيلة على رأس رجل عالم فاضل شبه قمة الجبل برأس الإنسان الفاضل ، والثلج الذي يحيط قمة الجبل بشكل محيط أو دائري تشبهه بالقلنسوة وأحيانا يستمد الشاعر تشبيهاته و خيالاته مس البيئة العربية و ثقافة العرب و ذلک كقوله في منظومته الخالدة مسجد قرطبة(٨) :

أيها المسجد! أساسک قوي لا يتزعزع و أعمدتک كثيرة

كأنها صفوف أشجار النخيل في صحراء الشام

ونحن نعرف أن التلميح قد يكون أبلغ في العبارة من التصريح فيستخدم الشاعر التلميح الكناية للإشارة إلى قصة أو حكاية طويلة ، الهدف منها إيقاظ العزائم والهمم، والدعوة إلى تحقيق الاستقلال و تقوية الإرادة ،

وتنمية الشعور بالإيثار بها والشهادة ، والشجاعة ، و نجد في أشعار إقبال بعض القصص مثلا : قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ألقاه " نمرود " في النار يقدم إقبال هذه القصة في عديد من أشعار يقول (٩) –

" إن العشق قد نزل في النار بدون تردد

بينما كا العقل يفكر في خطورة الأمر "

وكذلک يشير إلى تضحية سيدنا إسماعيل عليه السلام ، وشهادة سيدنا الإمام الحسين رضي الله عنه في أشعاره حيث يجعلها مثالا للصبر والطاعة والإيثار والتضحية –

" إن حكاية الحرم غريبة و فريدة ، بدايتها تضحية سيدنا إسماعيل ، و نهايتها شهادة

سيدنا الحسينؓ بن على كرم اللّٰه –

كما تناول إقبال قصة سيدنا موسى والخضر (١٠) عليهما السلام –

فعندما ذهب موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام وقعت ثلاثة أحداث مختلفة من نوعها مثلا ركب سيدنا موسى والخضر(علهما السلام) السفينة لتعبر البحر فصاحب السفينة لم يأخذمنهما الأجرة لكن قبل النزول على الشاطى ء خرق الخضر السفينة فاعترض موسى عليه السلام على ما فعل الخضر فرد قائلا : "إن هذه السفينة كانت لرجل مسكين و كان يستولي ملك تلك المنطقة على سفن الناس بالقوة فخرقتها لكي لايأخذها الملك و تبقى في يدصاحبها المسكين " –

ثم انطلقا من هناك ووجدا في الطريق ولدا جميلا فقتل الخضر الولد فاعترض موسى على ما فعل الخضر ، فأجاب قائلا : " إن والديه كانا من المسلمين ، وكانا يحبان ولدهما حبا شديدا ، وأنا رأيت في هذا الولد شرا فقتلته لكي أبعد عنهما شر هذا الولد" –

بعد ذلك وصل سيدنا موسى و خصر إلى قرية فشاهدا جدارا يكاد يسقط فأقامه الخضر واصلحه فاعترض عليه موسى قائلا : كان عليك أن تأخذ الأجرة على ما فعلت ، فرد عليه الخضر قائلا: " إن هذا الجدار كان لغلامين يتيمين و كان تحته كنزلهما ، فأراد ربك أن يجد الغلامان اليتيمان كنزهما بعد ما يكبران و يبلغان أشدهما "

عبر إقبال عن هذه القصة الطويلة فيبيت واحد في المنظومة " خضر الطريق " يقول (١١) :

قصة سفينة المسكين ، وروح الوالد ، وجدار اليتيم
تدل على أن علم موسى – عليه السلام – كان في حيرة
لماشاهده من الأحداث في رحلته مع الخضر "

هكذا نجد التلميحات في أشعاره إذ يركز فيها على أحداث و تاريخ العالم الإسلامي والبيئة الإسلامية ، و من ذلك أنه أشار ببعض الشخصيات العربية و خاصة ليلى و سلمى إلى العروبة والحياة البدوية و ذلك في قوله (١٢)

وفي الحقيقة ليست عندک ولا عندي رغبة في زيارة منزل " ليلى "
كما أننا لا نستطيع أن نتحمل صعوبة السفر و حرارة الصحراء
لأننا نحن من العجم و بذلک لايمكن أن تزور سلمى " –

فهنا ليلى و سلمى كناية عن الأهداف السامية ويوضح الشاعر الصعوبة والشدة في الطريق للأهداف السامية وقد أخد الشاعر أسماء ليلى و سلمى من البيئة العربية –

ويبقى أن أشير إلى عملية التضمين أو الاقتباس في أشعار إقبال ، وقد لجأ الشعراء إلى تضمين كلمة أو اقتباس آية أو بعض آية للوصول إلى جوشعرٌ يتلاء م مع الحالة التعبيرية التي يريد الشاعر الوصول إليها–

فالتضمين والاقتباس لهما شرطان أساسيان أولهما حسن الانتخاب وثانيهما أن يصبح الجزء المستخدم مرتبطا بالنص و مضمونه كي لا يفرق بينه و بين كلامه فنجد التضمين في شعره(١٣)

أيها الغافل ! تعال و استوطن موطنک الأصلي
هذا الصوت يخرج من رجل عاقل ثاقب النظر و متين
يعنى عليک ألاتهرب من عادات و تقاليد أسلافک ولا تنحرف عن الطريق القديم –

البيت الثاني من هذين البيتين للشاعر (أبى طالب كليم) ،يقول(١٤)

رغم أن العالم الإسلامى منور بضياء الشمعة الجديدة
لكني أدركت هذه الحضارة (الخادعة) جيدا و أقول لعشاقها
إنكم قد تأثرتم بحرارة هذه الحضارة
لكن من الواجب أن تحرقوا أنفسكم بحرارة ذاتيتكم
وذلک لو تجدون شيئا من الحرارة المتبقية في صدوركم

البيت الثاني للشاعر (فيضي) ضمنه إقبال في منظومته (الحضارة المعاصرة ٩ ونراه يقتبس كثيرا من الأيات القرآنية في أشعاره مثلا فيقول :

يا للأسف نسيت أيها المسلم كلمة " لا تدع مع الله إلها آخر " –

ويقول في موضع آخر (١٥) –

أيها المسلم ! عليک أن تذكر لحظة و كل حين " لا تخلف المعياد "

وعليک أن تستحضر رسالة لسان العصر " إن وعد الله حق " –

وقد شرح صاحب المثل السائر استخدام الآيات والأحاديث و أنها سبب في حسن الكلام يقول :

" فأما الحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يضمن الآيات والأخبار النبوية ، و ذلک يرد على وجهين ، أحدهما تضمين كلي والآخر تضمين جزئي –

و اختار إقبال الطريقة الثانية يعني أنه يستخدم كثيرا من مقطوعات الآيات والأخبار النبوية في شعره كما شرحنا ، وهكذا كانت طريقة تعبير إقبال و جمال أسلوبه وروعة آدابه و عنايته باختيار ألفاظه و تفننه في نتويع جمله –

ثانيا: الصور الجمالية

تجمع لغة الشعر بين الإحساس والعاطفة والفكر ، و هي تختلف من إنسان لآخر ، ومن شاعر لشاعر، واختلافهما لا يظهر إلا في الصورة الشعرية التي يعبر بها الشاعر عن تجاربه الشعورية بصدق و عمق و براعة ، و مفهوم الصورة الشعرية هو: الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشعر في سياق بيانى خاص ليعبر عن جانب من جوانب تجربته (١٦) ، أى أن الشاعر يعتمد على الكلمة أساسا في تصوير ما بداخله –

و متى دققناالنظر في دواوين إقبال لا حظنا أنها سجل حافل بصور البطولة للدفاع عن الأسلام والمسلمين ، ولذا اشتهر إقبال بلقب شاعر الإسلام لأنه قصر إبداعه على معاناة المسلمين في مواجهة الغرب المتقدم فضلا عن صدوره عن روح القرآن و يحتل إقبال مكانا فريدا بين شعراء الفلاسفة الذين اتخذو ا من الشعر أسلوبا ووسيلة يصوغون فيها أفكارهم ويخلدون من خلالها آراء هم الفلسفية في النهضة والبعث والكون والحياة ، و خير مثال على ذلک قصيدته الأردية (١٧) " مجلس شورى إبليس " ، أي برلمان إبليس ، إذ صورفيها جلسة برلمانية حضرها و تناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي –

واستخدم إقبال هذا الحوار لينبه المسلمين إلى الضعف و مساوى العصر الحاضر فأظهر الشيطان مع مستشاريه في صورة مناقشات عن السياسة العالمية ، وتعد قصيدة إقبال هذه من أحسن القصائد التمثيلية ، وهي توضح أسلوبه البيانى و ما امتاز به إقبال من سمو في الخيال و اتساع في الأفكار وقوة في المضامين وأصالة في النظر والفكر والتسلسل في اختيار الألفاظ و السهولة –

والانسياب والتنغيم والموسيقى ، كما أن طريقته التمثيلية في النظم أظهرت جمالا خاصا و أثرا رائعا فريدا ، وقد أعجب أكثر الشعراء العظام بهذه الطريقة البيانية ففي النظم التمثيليي بين الشاعر مكنون قلبه عن طريق الكنايات والاستعارات –

وهذا الأسلوب يوثر في خلق الحركة الرمزية ، وفي هذه المنظومة يقارن إقبال بين نظام المعيشة الإسلامى والنظم العالمية الأخرى ، النظام الجمهوري (Democrecy) النظام الملكي (Imperilism) والنظام الاشتراكى (Communism) وكل نظام عنده هو نظام إبليسى ما عدا النظام الإسلامى –

وتبدأ القصيدة حين يطلب الشيطان عقد جلسة برلمانية للبحث والتفكير في مشاكل الدنيا ويجلس مستشاروه كل في مقعده الخاص ويفتتح جلسته بالقاء الضوء على ما حدث و تفسير جميع الأحوال ، ومع بداية الجلسة تظهر الروح الكاملة في الشطر الأول للبيت (١٨) وهى

" هذه البعة القديمة للعناصر (عناصر طبيعة) و هذه الدنيا الوضيعة " بعد ذلک يتحدث الشيطان لمستشاريه قائلا (١٩) :

إننى عرضت على الإفرنج حلم الملوكية
وإنني خطمت سحر المسجد والمعبد
والكنيسةوإنني علمت الفقراء درس القدر والجبر
وإننى أعطيت الغنى جنون الر أسمالية

ثم يوضح الشيطان أن هذا النظام مستحكم وقوي ، فمن الذي يستطيع أن يخرب

ويهدد هذا النظام وينتصر علينا فيقول(٢٠)

من يستطيع أن يطفى ء ناره المتاججة إن في هيجانها الحرقة الإبليسية

وبعد الاستماع لهذه الدعوى الإبليسية يؤيده مستشارة الأول موضحا ضرورة العمل على إقامةنظامه بدقة و إحكام(٢١):

لا شک أن النظام الإبليسى محكم و متين

وفى ظله تعود الشعب طبع العبودية

الخضوع مقدر على هؤلاء المساكين

لطبيعتهم تقتضى منهم صلاة بلا قيام

أولا لا يمكن أن تخلق الأماني بداخلهم

وإذا خلقت فإنها تموت أو تبقي غير ناضجة

وهذه ثمار لجهودنا المتواصلة

بأن أصبح اليوم الصوفي والإمام كلاهما عبدللملكية

وكأن هذا الأفيون (٢٢) مناسبا لطبيعة أمم الشرق

فإن علم الكلام ليس أقل من الشعر (٢٣)

فإن بقيت مظاهر الطواف والحج

وإن فات المؤمن المشهرلم يعد بتارا

من الذي أقام الدليل لهم وقال

إن الجهاد على المسلمين حرام في هذاالعصر

وبعد سماع كلام المستشار الأول يرد عليه مستشارة الثاني و يوضح ضرورة ظهور النظام الإبليسي في شكل الفتنة الجديدة تحت اسم الديموقراطية حتى يتطور النظام الإبليسي (٢٤):

هل غوغاء الحكم الجمهوري خير أو شر ؟

إنک لا تدري شيئا مع الفتن الجديدة في العالم

لكن المستشار اللأول يطمئن المستشار الثاني قائلا (٢٥) :

نعم ! لكن تجربتى تعلمني فما الجمهورية إلاستارا للمكية لا خطر منها

ونحن كسونا اللباس الجمهوري عندما رأينا الإنسان عرف ذاته و شعر بكرامته

ألم تر نظام الغرب الجمهوري مضي ء الوجه بينما الباطن أظلم من جنكيز

يتحدث المستشار الثالث قائلا:

" لابأس إذا بقيت روح الملكية لكن أين نظير هذه الفتنة التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى كارل ماركس ليس نبيا لكنه يحمل عند أتباعه كتابا مقدسا لو قبلته الدنيا، فهذا يعني انتها ء الإبليسية (٢٦):

إن بقيت روح الملكية فأي اضطراب بعد ذلک

ليس هناک أي رد لفتنة ذلک اليهودي

هو الكليم بغير تجل ، هو المسيح بغير صليب –

ليس رسولا لكنه يحمل تحت إبطه كتابا

وطبقة العمال سموا زعيمهم بالكليم فقد عاش كارل ماركس عمره بأكمله كما عاش المسيح في فقر وضنک، وفكر أن يجعل الناس طبقة واحدة ووجدها فكرة صائبة فعمل لتحقيقها بكل قوة ، ولذا يقال له رسول بلا كتاب –

بعد أن سمع المستشار الرابع كلام المستشار الثالث أشار بعدم الخوف من هذا النظام أيضا لأننا قد أظهرنا الحركة الفاشية للقضاء على الاشتراكية حيث اجتهد موسيليني (٢٧) فى العمل على إحياء العظمة الزائلة للرومان –

لتنظر إلى السر في إيوانات روما الكبرى

فقد أعدنا على آل قيصر حلم قيصر مرة ثانية (٢٨)

إلا أن المستشار الثالث لا يقتنع بجواب المستشار الرابع ، فهو يخشى أن يقوم موسيليني بكشف النقاب عن مساوى سياسة الأفرنج بوضوح ، ومن هذا يخلق الإحساس بضرورة إيجاد رد فعل لهذا النظام وبالتالي يكون هذا صدمة كبرى للنظام الإبليسي .

وبعد سماع كل هذا الحوار يتجه المستشار الخامس إلى إبليس مخاطبا إياه و معترفا بعظمته و مؤيدا مخاوف المستشار الثالث بقومه (٢٩) :

يا صاحب الفخامة! رغم أن سحرة أوروبا كلهم من مريديک
لكنني الآن لم أعد أثق بفراستهم
ذلک اليهودي الشرير بعث روح مزدک
كاد من فتنة يتمزق كل ملموس إربا
ذلک الذي ظنناه لحماقتنا حفنة التراب
قد ساد الأفلاک بجنونه
وساد الرعب من فتنة الغد
حتى ارتجفت الجبال والمروج والأنهار
ياسيدي ! إن هذا العالم الذي كنت تحكمه أنت فقط
سينقض عليک يكاد ينقلب رأساعلى عقيب

وبعد أن رأى إبليس ما لمستشاريه من قصر النظر وضعف الهمة وضح لهم قوته ، وألقى الضوء بطريقة واضحة على كل الصعوبات قائلا (٣٠) :

إننى أملک زمام هذا العالم المحسوس وأتصرف كما أشاء
سواء في ذلک الأرض أو هذه الشمس والقمرأو السماء جميعا .

بل إنه يطمئن مستشاريه قائلا: أستطيع بصرختي " أن أصيب جميع أصحاب الحكمة والفراسة و رهبان الكنيسة وقادة السياسة بالجنون ، ثم يخاطبهم : إن مخاوفهم هذه ليس لها أي أساس ، بل إن ذلک النظام الذي لا يقوم على ا ساس محكم كالنظام المزدكي الذي هو مخلخل غير ثابت تماما وأن الفطرة قد أقامت امتيازات في هذا العالم فأقامت فيه الطبقات والفواصل والنظام الاشتراكي نفسه لا ستطيع أن يثبت قدمه في أي مكان فهو ينهار دائما.

ثم لفت إبليس نظر مستشاريه إلى نظام آخر لم يقع نظرهم عليه وهو نظام الإسلام

فيقول (٣١):

إن كنت أتوجس خطرا فهو من تلك اللمة التي لا يزال شرر الطموح كامنا في طينتها ، ولا يزال فيها أولئك الظالمون الذين سيتوضئون من دموع الخشية عند السحر إن منكشف له با طن الإمام يعرف فتنة الغد ليست الاشتراكية ، إنما هي الإسلام فإبليس يعرف أن مستشاريه لم يهتموا بالنظام الإسلاميالذى جاء ليحطم أصنام الر أسمالية ، ويخاف إبليس أن تؤدي مقتضيات العصر الحاضر إلى إظهار تعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثانية ليس فقط لدى المسلمين ولكن قد تكون مشعلا وهاديا أنحاء العالم ويلقيي إبليس الضوء أكثر محذرا.

الحذر ! الحذر مائة مرة من نظام الرسول

فهو حافظ لكرامة المرأة و مختبر المرء وصانع الرجال

وهكذا اجتهد إبليس في محاولة تعريفهم بأن الإسلام يعطى للإنسان مكانه الصحيح فهو يثبت حقوق الرجل والمرأة كما يهب الإنسان رباط قوة الحياة ويهبه قوة تسخير الكائنات ويدعو للمساواة التامة بحيث لا يوجد أي امتياز بين الغني والفقير ، كما أنه يلغي العبودية ويضع قانونا ثابتا للاقتصاد ويطهر المال والثروة عن طريق الصدقات والزكاة،كما لايسمح للاغنياء ان يكونوا مثل فارون باكتناز الثروات لكنهم يكونون حراسا فقط على المال ، أما من مليكة الأرض فالروح الابليسية موجودة في كل نظام ما عدا الإسلام الذي قرر أن الملك لله الواحد فقط –

ويواصل إبليس إظهار رأيه في الإسلام قائلا لهم: إن الإسلام يقضي على الفوارق الطبقية ولكن ما يجعلنا مطمئنين هو أن المؤمن غافل عن التوجه إلى أسس تعاليمه الدينية ، وغفلته هذه علامة على بقاء نظامنا وسلامته ، فالمؤمن ترك أسس دينه و أصولها وضاع وسط التأويلات الفلسفية لمسائل الإلهيات و فروعها ، و ابتعد عن دنيا العمل ، فهذا شي ء مفيد لنا ، ولهذا يا رفقاء العمل ابتلوه بهذه الفضلة ، واجعلوه مستغرقا فى نوم حتى يبتعد عن دنيا العمل وحتى ينسى تسخير الكائنات وهداية العالم ، ولا تدعوه يتذكر مكانته –

اجعلوه غريبا عن عالم العمل لكي

تنهزم جميع القطع الشرنجية على بساط حياته

فمن الخير أن يبقى المؤمن في الرق حتى يوم القيامة

ويترک هذه الدنيا الفانية للآخرين

وها هو الشعر والتصوف أكثر فائدة له حتى يحجب عن عيونه ما يدورفى الحياة (٣٣) –

وبعد هذه الكلمات الناصحة توجه إبليس إلى مستشاريه و أمرهم أن يثبتوا عناصر هذه الغفلة حتى يبقى المسلمون في غفلتهم هذه ، لانه يخشى أن تستيقظ هذه الأمة (٣٤) :

إننى أخاف من يقظة هذه الأمة مع كل نفس يتردد بداخلي

فحقيقة دينها هى تسخير الكائنات

أسكروه واجعلوه والها بالذكر والتفكر فى الأسحار

وأنضجوافيه حب الخانقاوات (زواياالصوفية)

هكذا يصور إقبال فكره بتمثيل رائع وينظم منظومته بجمال الشعر في جرسه و رنينه و في انتقاء ألفاظه و تجانسها و في ترتيب هذه الألفاظ ترتيبا يبرزالمعنى في ا روع صورة و أبدعها –

والجدير بالملاحظة تقديم إقبال في بعض أشعاره الأشياء التي لا حياة فيها في شكل محسوس حتى تظنها وقد دبت فيها الروح ، و خير مثال لذلک قصيدته الأردية " بزم أنجم " أي اجتماع النجوم ، يتحدث فيها عن غروب الشمس ومطلعها(٣٥):

منحت الشمس للسماء الأسود عند زوالها

شقائق النعمان التي أخذها من طبق السماء

وألبسها الشفق كل الحلى الذهبية

والفطرة أنزلت لها كل الحلى الفضية

وجاء ت ليلى الظلام في هو دج الصمت

ولمحت درر عروس الليل الجميلة

وتلک النجوم البعيدة عن ضجيح الدنيا

ويسميها الإنسان بلغته النجوم

كانت حلفة السماء شديدة الزرقة

ونادى الملک من عرش العلى

نجوم السماء ياحراس الليل

كلكم نور فوق الأفلاک

أنشدوا غناء خاصا حتى يستيقظ النائمون

وجبينكم مضي ء هداية للقوافل

وهم يعتبرونكم مرايا تقدير

لعل اهل الارض يسمعون اصواتكم

زال الصمت من الفضاء الملي ء النجوم

وامتلاء فضاء السماء بهذا النداء

جمال الأزل يبدو في جمال النجوم

المتغيرات الحديثة والتعصب للقديم

وفي سيرها تسحق بعض الأقوام

غابت عن أنظارنا آلاف النجوم

لكنهم أيضا صاروا جزء من شعوبنا

ساكنوا الأرض لم يدركو طيلة العمر

ما أدركناه نحن في عمر قصير

النظام كله قائم بالتعاون

وهي الحقيقة الكامنة في حياة النجوم

وفي بداية منظومته رسم إقبال منظر غروب الشمس ، و بعد غروبها رأي آثارها في

صورة الشفق و شبهه بالحلي الذهبية والفضية ثم رأى منظر طلوع النجوم و شبهها بدرر عروس الليل الجميلة ، كما شرح إقبال في آخر منظومته السر الكامن في استمرارية حياة النجوم وهو الأخوة والمحبة وبسببها تبقى نظم الكون –

وقد قرر الدكتور أحمد (٣٦) الشايب أن الصورة الشعرية مرتبطة بالمعاني اللغوية للألفاظ و يرتبط بها الموسيقى و معانيها المجازية و حسن تا ليفها معا ينشأ تأثيران : أحدهما معنوي عاطفي ، والثاني : موسيقى يعين في قوة العاطفة باختلاف الأدباء والشعراء ويتبع ذلک اختلاف الصورة الشعرية التي تؤدي هذه العواطف ، فالشعراء يتبادلون الشي ء الواحد معجبين به وها هو إقبال يتحدث عن فكرة الموت قائلا (٣٧) :

الأنغام التي مضت ، قد تعود أو لا تعود
قد تهب رياح الحجاز او لا تهب
انتهت أيام هذا الفقير
وقد يأتي عالم بالأسرار أو لا ياتي

وكم تغني الشعراء فى الآداب المختلفة ، والتمسوا منا في قصائدهم أن نخفف الأقدام عن الأرض خشية أن تدق قدمنا أهداب حسناء أو كما قال آخر إن أديم الأرض من هذه الأجساد و إقبال يقوم (٣٨) :

ما أجمل الصحراء فمساؤها صبح بسام
ليلها قصير و نهارها طويل
خفف الوط ء أيها السائر فإن
كل ذرة من رمالها محزونة مهمومة مثلنا

إن ثمة ارتباطا بين المادة والصورة أو بين اللفظ و المعنى أو بين الفكرة والعاطفة من ناحية والخيال واللفظ من ناحية ثانية ، وأي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح ، وإن الأدب القوي الخالد يقوم على صدق الشعور وصحة التكفير ثم الرغبة الصادقة فينقلها إلى القراء بالقدرة البيانية المتجلية في الصورة الشعرية أو الأدبية

وكلها كانت الصورة الشعرية رائعة استطاع الشاعر أن يجسدالافكار ويقدمالمعنويات كانها محسوسات نكاد نلمسهاكماانه يستطيع فى سهولةويسر أن ينطلق من المحسوسات إلى المعنويات وأن يمزج بين الطبيعة والحياة والنفس والإنسانية في صورة متكاملة تجمع بين عمق التأمل وروعة التصوير ، يقول إقبال (٣٩) عن ناقة الصحراء :

عيونها السوداء ندية بالدموع

قلبى يحترق من آهات صياحها

تلك الخمر التي أضاء ت و أشعلت ضميري

تنسك دوما من موج نظرتها

ثالثا: التراكيب

يعمل الشعر على إثارة الشعور و تحريك الوجدان داخل الإنسان أو بعث الإحساس بالجمال في سبيل ذلك يستخدم وسائل معينة في الصياغة ، ومن هذه الوسائل العنصر الموسيقي.

وقوام هذا العنصر أو جوهره اللغة يستخرج بها الشاعر ما تعجز دلالة الألفاظ في ذاتها عن استخراجه من النفس البشرية كاللون العاطفي للفكرة أو ظلال المعانم التى تعجز الألفاظ في ذاتها عن التعبير عنها بينما يستطيع التنغم بهذا التعبير أو على الأقل الإيحاء به ، يقول الدكتور محمد مندور (٤٠) : " الموسيقى الشعرية إحدى الوسائل المرهفة التي تملكها اللغة للتعبير عن ظلال المعاني وألوانها بالإضافة إلى دلالة الألفاظ و التراكيب اللغوية "

وفي شعر إقبال يتجلى الإحساس الموسيقى بشكل واضح في الوزن المناسب ، وأوزان شعره هي الأوزان الفارسية التي أخذها شعراء الفرس عن الآوزان العربية و تصرفوا فيها و زادوا عليها ، ثم انتقلت هذه الأوزان إلى الشعر الأردي والتركي.

وكان إقبال يستخدم في منظوماته بحورا متطابقة و منسجمة مع تطوره الفكري ، ونراه ينظم أكثر منظوماته في بحر الرمل المثمن المحذوف و مثل : هيمالايا ، وشمع و شاعر ، وانه الفراق ، وجبريل وإبليس ، و خضر الطريق وغيرها–

أما منظومة الشمع والفراشة ، والشمس والشمع ، وألم العشق ، و الحب والندى والنجم ، و أسبانيها ، منظومة لينن أمام الله فقد نظمها في بحر المضارع المثمن الأخرب المكفوف ، و هذا البحر يمتاز بسهولة أنغامه و حلاوتها و تجانسها كما أنه مفعم بالقوة والحمية والحماس و سرعة نفاذه إلى القلب ، ويقول في مطلع منظومته بالأردية " روح الأرض تستقبل آدم " (٤١)

افتح العين و انظر إلى الأرض ، إلى الفلک ، إلى الفضاء

و انظر إلى الشمس التي طلعت من الشرق

وفي منظومته لينن أمام الله يقول (٤٢) :

يامن آياتک ظاهرة في الأنفس والآفاق

والحق هي آنت الحي القيوم

هذان الشطران يدلان على قوة تصورالشاعر ، وهذا ناتج عن التجانس والانسجام بين مزاج البحر نفسه و بين جلال الشعر وقوة الأفكار –

كما نجد منظومة الرجاء والنشيدالهندى والوطني للأطفال الهنود وغيرها في بحر المضارع المثمن الأخرب ، فهو بحر سهل و ظاهر بماله من ترنم ونغمات ، وكل هذه المنظومات التي ذكرنا ها تترجم عن الشاعرية الصادقة والإحساسات العظيمة لدى إقبال ، و منظومة الشكوى و جواب شكوى فى بحر المثمن المخبون المقطوع إذ إن هذا الوزن يصلح لأداء مختلف الأفكار بطريقة تمتاز بدرجة كبير ة من الترنم ، ومطلع هذه المنظومة (٤٣) :

حديث الروح للأرواح يسري	وتدركه القلوب بلا عناه
هتفت به فطار بلا جناح	وشق أنينة صدر الفضاء
ومعدنه ترابي و لكن	جرت في لفظه لغة السماء
لقد فاضت دموع العشق مني	حديثا كان علوي النداء
فحلق في ربى الأفلاک حتى	أهاجه العالم الأعلى بكائي

والقافية في عرف العروضيين هي آخر متحرک بعد ساكنين يختتم بها أي بيت

شعري أي أن القافية هي المتحرك الذي يعقبه الساكنان اللذان في آخر البيت ، لكن في اللغة الاردية أحيانا يخالف هذه القاعدة أي آخر ساكن بعد المتحرك يختتم بها أى بيت شعري –

التزم إقبال نوعا معينا في قوافيه ، وقد نظم في القالب الموحد الذي التزم فيه بالقافية الموحدة ، ومنظومة الورد الملونة والعقل والقلب ، والصبح والشاعر و مسجد قرطبة ، ومطلعها (٤٤)

توالي الأيام والليالي يرسم الأحداث

توالي الأيام والليالي أصل الحياة والموت

وعلى هذا فالقافية تشكل عنصر ا هاما من عناصر الإيقا ع في الشعر لما تضفيه على التعبير الشعري من قيمة موسيقية خاصة نتيجة لتكرر عدة أصوات في أواخر الأشطر أو الأبيات فى القصيدة –

والنوع الثاني الذي استخدمه إقبال في أشعاره القافية المزدوجة ، يعني قافية الشطر الأول هى نفس قافية الشطر الثاني ، وخير دليل على ذلک منظومة " المسلم " وجواب شكوى ، والعلم و العشق ، وغزليات ديوان جناح جبريل يقول إقبال (٤٥):

ما يريد العشق من حياة مستعارة ؟

ما يريد العشق من زائل لخالد ؟

العشق الذي تخمد نفحة الموت جذوته

لا يسره أن يفني هياج الانتظار

هذه القافية يستطيع الشاعر أن ينظم منها آلافا من الأبيات دون أن يعيبه جهد أو نت و دون أن يتعثر فى التعبير عن معانيه ، هذا بالإضافة إلى تنوع القافية مما يزيد في موسيقى الشعر ويكسبه جمالا فوق جمال ويمتعنا بنظم سهل الموسيقى قريب إلى القلوب محبب في الأسماع –

واستخدم إقبال كذلک الرباعيات ، والرباعيات تقدم شكلا شعريا ملائما و مريحا

لـمـا يسـمـى الـعـروضية الـطارئة للإلهامات الفردية ، وهي شكل يناسب الموضوع الطويل و يناسب التعبير عن الدفعات والحركات المفاجئة –

وهـنـاك اختلاف حول شكل الرباعية هل يمكن أن نعد الرباعية التي يكون الشطران الأولان منها عـلـى قـافية واحدة أي " أب ج ب " ؟ هل يمكن أن تعدها رباعية أم أنها تسمى قـطـعة تمييزا لها عن شكل الرباعية المشهور " أأب أ " لكن خرج إقبال على نظام الرباعيات بـحيـث لـم يـلتـزم فيه القافية إلا في الشطرتين الثانية والرابعة ، و نجد مثل هذه الرباعيات في ديوانه " أرمغان حجاز " (هدية الحجاز) ويقول (٤٦) :

قال إقبال لشيخ الحرم
من الذي ينم في ظل محراب المسجد ؟
فارتفع الصوت من جدران المسجد
من الذي يفقد الوعي في معبد الأفرنج ؟

تـمتاز رباعيات إقبال بالجمال والتنوع و تتمثل فيها القافية واتساق اللحن و استخدام الـجـنـاس والسـجـع حيث يضفي صوتا سحريا ، وكما تمتاز بما تحوي من العاطفة والتلقائية والعفوية والخيال ، وهذا مما يجعل رباعياته وحدة طبيعية محببة –

هـذا هـو مـحـمد إقبال ، وهذا هو شعره فى دواوينه ، تتنوع ضروبه و أشكاله وإيقاعاته وبـنيـاتـه التركيبية ، وتجمع نصوصه بين الغنائي والتمثيلي ، وتتمثل شعرية هذه النصوص في لغة إقبال المرهفة ، وفيما يولد بخياله المبدع من صور مبتكرة تعالعنا في مجازاته واستعاراته وتشبيهـاتـه ، وهـي صـور لا تـقصد لذاتها و إنما لما تؤدية من معان قدمها إقبال في بعض هذه النصوص على نحو رمزي –

والافـت فـي شـعـر إقبـال أنـه يـنطلق من موقف ديني تتحول العقيدة فيه إلى شعر يتميز بالصفاء والعمق ، ويخلو مما يغلب عادة على كل شعر يتصل بالدين والعقيدة ، عندما تعلو فيه نبرة الخطاب في أداء وعظي مباشر –

هـذه هـي الـعـقبة التـي تـواجـه الشـعـراء عندما يصوغون خطابهم الشعري من العقيدة

بـمـعناها الديني ، ولا يقتهم هذه العقبة إلا أفراد معدودون من الشعراء القادرين على توليد قيم شـعـرية جـمـالية من عقيدة تتميز بالتوكيد والقطعية والتصديق ، وينتمي بعض الشعر الصوفي إلـى هـذه الـقـدرة على الاقتحام والملاء مة بين الإذعان الديني والقيمة الجمالية ، ويعجز عن هـذه الملاء مة ضرب آخر من الشعر البعيد عن لغة الرموز والإيحاء ت ، إذتبدو فيه العواطف مصطنعة وهو أقرب إلى لغة الخطابة منه إلى لغة الشعر .

الهوامش

١. الدكتور احمد الشايب:اسلوب،ط.المطبعة الفاروقية بالاسكندرية١٩٣٩ ص١٧٥ .
٢. مـحـمـداقبـال :ارمـغـان حجاز،ط.لاهور١٩٢٢ ص ١٤٥ ،وقدترجم هذاالديوان الى العربية الدكتور سمير عبدالحميدابراهيم،ط.المكتبةالعلميةبلاهور١٩٧٦ ص ١٥٥ .
٣. نفس المصدر،ص ١٢ .
٤. محمداقبال :كليات اقبال،ص ١١٥ .
٥. نفس المصدر،ص ٢٦٠ .
٦. محمداقبال :بانک درا،ص ٢١٩ .
٧. نفس المصدر،ص ١٩ .
٨. محمداقبال :كليات اقبال،ص ٢٠٠ .
٩. نفس المصدر،ص ٢١٥ .
١٠. الخضر:(الرجل الذى اختاره الله)
١١. محمداقبال :بانک درا،ص١٩٦ .
١٢. محمداقبال :رسالةالشرق ،ط.لاهور،١٩٧٧م ص ١٣٦ .
١٣. نفس المصدر،ص ٤٨.
١٤. نفس المصدر،ص ٤٨.
١٥. محمداقبال :بانک درا،ص٢٠٠ .
١٦. د.عبـدالـقـادر الـقـط:الاتـجـاه الـوجدانى فى الشعرالعربى المعاصر،ط.دار النهضة،بيروت

۱۹۸۱م،ص ۳۱۹.

۱۷. محمداقبال :ارمغان حجاز،ص ۵.

۱۸. نفس المصدر،ص ۶.

۱۹. نفس المصدر.

۲۰. نفس المصدر.

۲۱. نفس المصدر.

۲۲. نفس المصدر.

۲۳. نفس المصدر.

۲۴. نفس المصدر.

۲۵. نفس المصدر.

۲۶. موسیلینی زعیم ایطالی،ولدسنة۱۸۸۳م ومات سنة۱۹۴۵م.

۲۷. محمداقبال :ارمغان حجاز،ص ۱۰.

۲۸. نفس المصدر.

۲۹. نفس المصدر.

۳۰. نفس المصدر.

۳۱. نفس المصدر.

۳۲. نفس المصدر.

۳۳. محمداقبال :کلیات اقبال،ص ۱۶۶.

۳۴. د/احمد الشایب ،النقد الادبی،ط.القاهرهص۲۴۵.

۳۵. محمداقبال :ارمغان حجاز،ص۳۲.

۳۶. نفس المصدر،ص۲۹.

۳۷. نفس المصدر،ص۳۵.

۳۸. الدکتور محمد مندور:الادب ومتونه ،ط.القاهرهص۲۹.

۳۹. محمداقبال :کلیات اقبال،ص ۲۶۶.

۴۰. نفس المصدر،ص۲۲۰.

۴۱. محمداقبال :کلیات اقبال،ص ۱۲۸ .

۴۲. نفس المصدر،ص۲۱۴ .

۴۳. نفس المصدر،ص۱۸۰ .

۴۴. محمداقبال :ارمغان حجاز،ص ۱۱ .

۴۵. نفس المصدر،ص۱۸۰ .

۴۶. نفس المصدر،ص۱۸۵ .

المصادر والمراجع

۱. الشایب،احمد(الدکتور):اصول النقد الادبی،مصر،القاهره،بدون تاریخ.

۲. الشایب،احمد(الدکتور):اسلوب مصر،الطبعةالفاروقیة،بالاسکندریة،۱۹۳۹م.

۳. محمداقبال :ارمغان حجاز،ط.لاهور۱۹۲۲،وقدترجم هذاالدیوان الی العربیة الدکتور سمیر عبدالحمید ابراهیم،ط.المکتبةالعلمیةبلاهور۱۹۷۶ .

۴. اقبال،محمد:کلیات اقبال،باکستان لاهور.

۵. اقبال،محمد:بانک درا،باکستان لاهور.

۶. اقبال،محمد:رسالةالشرق،باکستان لاهور۱۹۷۷ .

۷. القط،عبدالقادر ،الاتجاه الوجدانی فی الشعرالعربی المعاصر،ط.دار النهضة،بیروت ۱۹۸۱م.

۸. مندور،محمد(الدکتور):الادب ومتونه،القاهره.